رحيل الرحالة

سماحة الشيخ عبدالجليل البن سعد

رحيل الرحالة

الشيخ علي الكوراني ليس من الشخصيات التي تركت آثارا كثيرة نقشتها أيدي عناصر الجمعية او المنظمة التي تترأسها ، كما هو حال بعض رجالات هذا العصر المجايلين له ، ممن تحركت أفكارهم مستعملة ايدي وألسنة العاملين تحت ادارتهم ، وأيضا هو ليس من الأساتذة المتنفذين الذين أين ما أشاروا بكفهم على ارض موات أحييت ، ولكنه يفوقهم في الآثار وليس له من معين سوى عنصرين ذاتيين :

١ الانفتاح النفسي الذي جعله قريبا من غالبية عناصر النشاط الديني ومؤسساته يستثمر المتمكنين ماديا والمتقدمين ميدانيا ويستثمرونه ايضا .

٢ الانفتاح الذهني الذي جعل منه شخصية متكاملة معرفيا وثقافيا وهو ما يختصر اليوم في كلمة "موسوعة" !

الشاب المتطلع :

لا يزال حراكه ولسانه وهو في الستينيات من عمره يروي بعض أوراق السيرة الذاتية لا سيما صفحات الولادة الحوزية لهذا العالم الفاضل وكيف انه قد كان رجلا لا يحب الحياة داخل الاسوار التقليدية الا اذا برهنَتْ على تماسكها أمام تحديه لا سيما في الوجهة العلمية . .

- ففي الفقه لقن نفسه فكرة أن يبني مشروعا علميا على كتاب مسالك الافهام للشهيد العاملي. لانه القاعدة الأساس لاجتهاد متاخري المتاخرين.
- وفي النحو هو الذي احيا بعض الأسئلة الثائرة على المناهج المألوفة كشرح ابن عقيل وابن الناظم والسيوطي وقطر الندى والجامي وغيرها ، فكان يتساءل بأي ذنب وئدت الأخت الرابعة عشر لكان الناسخة وهي"بقي" فانها من الأفعال التي ترفع المتبدأ اسما وتنصب الخبر بلا شرط.
- وفي تلقي البحث الخارج ارتمى في أحضان بعض الفقهاء الاعاظم بالنجف بانيا على رأي بعض الطلبة المميزين ولكنه لم يكن ليقلد في رحلته العلمية ـ وهي أولى رحلاته ـ حتى المميزيين، لذا قد سلّ نفسه بعد سنتين من صف هذا الأستاذ و وقف في صف مَدرَسٍ جديدٍ لفقيه آخر ليكتشف أن الأسبق أستاذ كان يستخرج العسل من آنية الفخار، وهنا أستاذ يسقيه العسل من الشمع الدهني الطبيعي، وذلك كله وفقا لحساباته ومرتكزاته الشخصية، التي فهمتها من لحن روايته ومشافهته لنا بهذه المواقف من حياته.

الانسجام العلمي :

في قم المقدسة وهي أوسع عالم قدر لي أن أدخله في أوائل مرحلة الشباب قد غمرتني الطمأنينة لما كنت ألمسه من نظرة التقدير المتبادلة بين المراجع الفقهاء و أعلام البحث والتخصص. هذا في المجمل العام طبعا . فكثيرا ما كنت اصادف علما او جماعة من الاعلام المتنافسين على طريق العلم والبحث وهم يشتركون في حضور مأتم او في ضيافة احدهم، ويتقابلون مستطلعين متشاورين متهادين اطراف الكلام بكل محبة ومودة.

وبعد تعرفي على الشيخ الكوراني ازددت بهجة لهذه الأخلاقية التي هي من أسباب استمرار القوة والعزة في الأوساط العلمية، اذ رأيته يدير علاقاته مع كبار المحققين والاعلام بسماعة الهاتف دون مقدمات المحرِجين والمتكلفين.. وانا اخص هذا المقال بحكايتين كان لي شرف الحضور فيهما :

في مدرسة السيد الكلبايكاني :

في العام الأول من اشتباك الثقافات و الاديولوجيات في شبكة الانترنت كان الشيخ الكوراني اسبق و اعمق شخصية علمية نزلت الساحات الحوارية الفتية

آنذاك، والتي قد انفتحت على الخلافات المذهبية والفكرية خاصة.. ولم يسبق للشيعة والسنة أن أصبحوا على صعيد المواجهة الفكرية المباشرة قبل هذا، فكانت هذه هي المواجهة التي لم يُعد لها من قبل احد من الطرفين لا اقل في السنوات الأولى، وساعود للحديث عن هذه المرحلة، الا أن ما يهمني نقله هنا هو أن الشيخ العاملي دعانا الى مقر مشروعه (المعجم الفقهي) والذي كان بمدرسة السيد الكلبايكاني وما أن حضرنا حتى كان بين الحضور اعلام من بينهم السيد عادل العلوي - بحسب ذاكرتي الان - والسيد محمد رضا الجلالي ممن رأيت في مجلسهم وحديثهم عدم التكلف فيما بينهم بل وفهمت انه لم يتكلف في دعوتهم اليه بشيء اكثر من مكالمة هاتفية فلبوا نداءه على وجه الاريحية والسرعة!

في مقره بمؤسسة آل البيت عليهم السلام:

لقد اسمعه احدنا اثناء زيارتنا له في مكتبه بمؤسسة آل البيت عليهم السلام نقلا يتضمن اثارة على لسان صديقه الشيخ الفضلي، فمد يده الى سماعة الهاتف ليتصل بالشيخ الفضلي مباشرة ، (واعتذاري الشديد لقارئي هنا) فبُعد الزمن

قد أنساني كيف انتهت الحكاية ويغلب على ظني أن فنيات الخط الدولي لم تساعد على نجاح المكالمة او انه أجل ذلك لاعتبارات أخرى.

و تمتد سطور الانسجام العلمي وتتعدد صفحاته الزاخرة بالحكايات واللطائف المعبرة عن روح التعاون بين أبناء الهم الرسالي المشترك، ور بما لا تصح المقارنة بين روحية اخوان الامس واخوان اليوم، يدلك عليه ما حُفظ من مراسالات بين اعلام الفكر في تلك المرحلة بعد أن تفرقوا وعادوا الى أوطانهم، من قبيل مراسلات السيد الصدر وطلابه، كما لا يزال هناك ركام من المراسلات بين الاعلام، ولا أظن أن هناك من عني بدراستها حتى الآن !

وفي عالم الفوتوغرافيا صور تستطيع أن تتحرر من جمودها فتبدو متحركة بل انها تتواصل مع الناظر اليها بلغة اخفى من الهمهمة.. وهكذا هي الصورة الفوتغرافية القديمة التي تظهر فيها كوكبة من الطلبة الشباب البارزين في ساحة الصحوة الإسلامية من السبعينيات (وهم آنذاك مأمونين آمنين من أي ملاحظة)، تعرفت منهم على الشيخ الاصفي والسيد فضل الله والشيخ الفضلي و ربما كان عنصر رابع لا تسترجعه ذاكرتي الآن،[1] ولكنها توحي بالتقاطها في مقر الباحث والمفكر الكبير الشيخ الفضلي بجدة.

---

[1] ربما يكون هو ذاته الشيخ الكوراني ولكني لا اجزم بذلك الان لبعد الفترة، وقد حاولت الوقوف على الصورة من جديد ولكن لم تنجح مساعي البحث عنها..

وفي احدى جلساتنا التي ألفناها مع سماحة الشيخ علي أشار الى حكاية جعلتني أصدق بما كنت استشعره من أحاديث تلك الصورة، فقال لنا :

بعد انتقال الشيخ الفضلي الى جدة توقف عن نشاط الكتابة وبعد الحج قصدناه في داره ومارسنا معه تحريك بوصلته الشخصية ليعود الى سابق بطولاته الفكرية ، فاعتذر بفقدان المصادر في هذا المكان ولكننا . يقول الكوراني . تعهدنا له باحضار ما يلزم وفق ما تسمح به الأوضاع و الأحوال العامة والخاصة.

إذا احسنت التقدير فانت الجدير !

لقد تميز الشيخ علي رحمه الله فيما وقفت عليه من تعامله . لا اقل . بنظرة الاكرام والتجليل لطالب العلم الذي يتوسم فيه الإخلاص و العمل ولاسيما من يشعر بذوبانهم في رسالتهم الثقلانية "كتاب الله والعترة" ، وحقا جميلة هي الحكايات التي عشناها مع دروسه في التقدير للاخر مهما كان فارق العمر بينه وبينه !

(١)

يقول احد طلاب العلم الذي هو في عمر ولد من أولاد الشيخ الكوراني لقد فارقته منذ زمن طويل اذ انني لم اعد الى قم المقدسة بعد استقراري في منطقتي

واذا ابي افاجأ بطالب عابر من قم المقدسة يخرج لي سي دي مكتبة أهل البيت مع قفلها المشفر مغلفة مشفوعة بتحية من الشيخ الكوراني ويقول هي هدية خصك الشيخ بها !

(٢)

ويقول احد رجال الدين خرجنا مع قافلة من قوافل الحج قبل اكثر من ١٥ عاما واذا بالشيخ الكوراني يحل ضيفا في مخيمنا ولما انهال عليه الحجيج بالاسئلة اعتذر عن الإجابة عن الأسئلة الشرعية احتراما لوجود مرشدين مختصين مرافقين للقافلة.

(٣)

في زيارتي الأخيرة الى قم المقدسة مررت بمقر عمله الملحق بمبنى مؤسسة آل البيت عليهم السلام وكان بين يديه مجموعة من طلبة العلم وغيرهم وبينا هو يتحدث عن بحث له حول المعاجم اللغوية وما فيها من هفوات واخطاء ، داخلته مؤيدا لكلامه بمقولة للسيد مصطفى في كتابه تحريرات الأصول بان كتابي المحيط للفيروز ابادي و مجمع البحرين مليئين بالاخطاء . .

فلم يستنكف أن يمسك بالقلم ويكتب المعلومة من رجل يصغره كثيرا

بل وبعد مضي وقت من الجلسة عاد ليتأكد من النقل فقال لي قلت أن السيد في تحريرات الأصول قد عرض لهذا الموضوع ؟ واجبته: نعم، فشكرني . .

(٤)

زاره احد الطلبة في مقره بمؤسسة آل البيت عليهم السلام والذي كان ضمن المتفاعلين والمتداخلين بالحوار العقائدي على شبكات الانترنيت ويقول: لم يكن قد مضى على علاقتي الحديثة بالشيخ الكوراني الا سنة تزيد شيئا او تنقص، واذا به يدعوني بكل تواضع الى شاشة جهازه ويطلعني على مشروع كتاب الانتصار الذي كان لا يزال قيد التنفيذ وقال لي انظر لقد افتتحت الكتاب بحواراتك لاني اراها افضل من حواراتي بل اني اميزها على الكثيرين !

الهوية المذهبية:

عندما يطير ذكره وينتشر صيته بين أبناء هذا العصر و بنحو مختلف عن غيره من الاعلام المتزامنين معه والمتفاعلين مع الهوية المذهبية فهذا يعني انه قد كان يدير مشروعه بطريقة قادرة على إثارة الاعجاب او التحفظ او كليهما ! !

ما لا شك فيه أن الهوية المذهبية كانت تمثل اشتغاله الكبير ، و عندما كنت اتأمل تحركاته في هذا الوجه من الحراك أجده فيمن يجعل الجزء الأكبر من القيمة في ابعاد اربعة : ابراز الاستعداد امام الاخر ، مع سرعة التصدي ، والمباشرة ، والجرأة أي عدم إخفاء ما هو صادم مثير للعقول ما دام غير مثير للنفوس ، وان جميع مواقفه و اخراجاته الكتابية وغيرها تدور داخل هذه الزوايا الأربعة ، ولا بد أن نتحدث بقليل من الصور عن مسيرته :

مع اول صورة :

الرصد لاي تحرك او مناوشة جديدة مع المذهب الامامي لذا سجل له أول رد على كتاب أصول مذهب الشيعة للدكتور ناصر القفاري ، وبهذا تعرف اهتمامه بعامل السرعة في مقابلة ما يثار .

لتأتي الصورة الثانية وهي :

الارتفاع بالتحدي للاخر الى مستوى الواجب الذي لا مقدمة له الا التضحية بالوقت و الطاقة ، كان يقول لنا انني استمر فاتحا عيني على منتدى الحوار طيلة الليل ولا اضع رأسي الا بعد صلاة الصبح ، وهذا فيما اظن مبالغة منه في الاستعداد .

والى اخر صورة وهي :

في المحافظة على اذاقة الاخر من نفس الكأس الذي يسقي غيره منه، وصدمه بالحقائق الغائرة في الذاكرة التاريخية والعلمية، وقد لا حظت هذا ضمن كتابه تدوين القرآن بعد أن سلمني نسخة منه، فقد عرض لروايات من مصادر المسلمين، لا بد وانها محرجة لذوي الجد لا ذوي اللعب منهم، وقد تخيل النتيجة نفسها حينما شرع في اخراج أجزاء كتابه الاخر "جواهر التاريخ".

نظرية لادارة العملية الحوارية:

ان حصيلة المشاركة الحرة والعفوية في تلك المنتديات هي قراءة نفسية الطرف الأخر، مضافا الى القراءة لعقليته ومنطق تفكيره، وقد انتهى الشيخ الكوراني الى أن الاخر يخضع للغة خاصة، يستطيع من يجيدها أن يأخذ منه كل مأخذ، وتتلخص تلك اللغة في:

أ) أن تكون ممن يملك الاشكال، واما اذا كنت ممن يملك الجواب فقط فان تأثيرك سيكون محدودا بين تلك المجموعات.. لهذا سارع وفي تلك الفترة بإخراج كتاب(١٠٠٠ اشكال)!

ب) أن تعتني بالفترة الأولى من فترات الحوار الافتراضي لما كان عليه من العفوية التي جرت كلا من عناصر الطرفين الى الحديث بالطبيعة النفسية والتربوية وكيف

أن موجه التهم انخرط ليتحدث في خصمه بما لا يصدقه عاقل وبما يجب أن يترفع عنه ابن القرن الجديد قرن الانترنيت ، لهذا لم يفته أن يجمع المناظرات بغضها وغضيضها في موسوعته "الانتصار" ذات التسع مجلدات حسب علمي .

خلق الاحتواء :

في تصور شائع بين الناس من حولنا ينمى الشيخ الراحل الى المجموعات المتشددة ذوي طبع المسارعة في نقد و رد من يختلفون معه قبل أن يقوموا بالتواصل معه عبر خطوط التماس المكتومة كالنصح والمحاورات التفاهمية التي تتصف بالصفة الشخصية . .

الا أنه لا مثال ولا شاهد لهذا في محيط معرفتي البسيطة بحياة الشيخ الكريم ، وطبعي لا يساعدني على التقصي وراء ما يثار ويدعى . . لا سيما وانني متى شاهدت الرجل في الوضعية السليمة مرة او مرتين تجاه المبدأ فانني أغلّب ذلك على حياته وأرى انه من حسن الظن الواجب فكيف به ان كان في عداد العلماء المميزين بالحرص . .

و يسبق الى ذاكرتي الان موقفه مع بعض المستبصرين القدامى و المعروفين بنشاطهم الواسع ، فعلى عكس عادته من الاشتغال بمسائل الخلاف الإسلامي

– الإسلامي بين الطائفتين الكريمتين السنة والشيعة، صار يتكلم في مجال الفتوى فيمنع بعضا مما يدفع اليه الفقهاء ويدفع إلى ما يمنعون منه؟ !

فهاجمه البعض فيما اختار الشيخ الكوراني التواصل المباشر معه واقنعه سرا أن يبقى مشتغلا بما هو مختص فيه ويدع ما للفقهاء للفقهاء ، وقد استجاب ونجحت عملية الاكتساب لشخصيته من جديد .

ولابأس بموقف اخر للتأكيد . .

ان احد رفقاء الشيخ الكوراني في العمل على قضية أهل البيت عليهم السلام وشريكه في الموقف حيال بعض المسائل الإسلامية العصرية بدا وعلى حين غرة وكأنه قد جدد قناعاته ، فشرع في تصدير أبحاث الكترونية تنتصر للاراء الطاعنة في بعض الممارسات الشعائرية، و لكن وفي الوقت الذي بدت الازمة بين جماعة من العلماء وبين ذلك الباحث والكاتب المحترم اختار الشيخ الكوراني طريقا يتسم بالرفق فحضر زواج احد أبناء صديقه القديم وقبل الدعوة لالقاء كلمة وابدا في كلمته. بحضور منا . الاحترام الكبير لصديقه، مثمنا جهوده على مدى أعوام طويلة، ثم حاول أن يؤول موقفه الاخير والتأويل لغة اللاتبرئة واللاتهام، وقدم نصيحة هادئة وطيبة لكل من يتوجه هذا التوجه دون أن يخصه بالاسم .

وجدانيات طريفة :

كل من تستمع اليهم او تستقصي حياتهم من رواد العلم سيفاجئونك بوجدانيات خارجة عن حدود البرهان ولكنها تبدو راسخة تتحكم في نظرتهم وحركتهم، وقد كان هذا الجانب واضحا بالنسبة لي من شخصية الشيخ الكوراني . .

- حدثته عن مؤمن عزيز كان قد رافقني في رحلة طلب العلم الا انه اعلن انسحابه من الحوزة طلبا للرزق، فقال وهل استغنى؟

قلت له لا . .

اجابني : كنت أتوقع ذلك لانه لا يفلح في الدنيا من ترك الحوزة عن فقر وقد عايشنا حالات عديدة تؤكد ذلك !

- تداولنا الحديث عن الفلسفة يوما ما . . فقال لي بابتسامته العريضة كل ما تقدر اخرج كتب الفلسفة من بيتيك . .

لماذا شيخنا؟

قال : هكذا اذا اردت أن تتحسن اوضاعك المادية فالفلسفة تجيب الفقر ! !

هموم رسالية:

الهموم في ميدان الجهاد العلمي و الحراك العملي الديني لا ينفك عنها قلب احد من الدعاة و النشطاء الرساليين كلا وحاشا . . ولكنني لا احيط بهموم قلب حليف العلم والشهرة الاعلامية الكوراني رحمه الله الا شيئا مما وقفت عليه من قريب وشيئا مما وقفت عليه من بعيد في حدود ما تحصلت عليه من فرص القراءة لما يكتبه.

هم العرض لتراث اهل البيت عليهم السلام:

علينا وفي هذه اللحظات أن نستعيد تعريفنا له فيما مضى من هذه المقالة (الهوية المذهبية كانت تمثل اشتغاله الكبير)، لنصل الى أن هذا الاشتغال الرحب والصعب سوف يضع رجال التشغيل تحت ضغط عال من الهموم وسيزيد الضغط اذا كانوا حكماء يتجاوزون الصدامات اذعانا بمقولة: قليل مأمول خير من كثير مأكول!!

لقد واجهناه بسؤالنا عن المستوى المتواضع لبرمجيات المعجم الفقهي وانه ـ في تلك السنين ـ لا يقارن في الإمكانيات بالمشاريع المشابهة لدى المدرسة الإسلامية الأخرى، واتذكر زفرته كما يزفر العليل، وتكلم بكلام يعرف من يسمعه أن ذكاءه يستوعب هذه المقارنة و لا يستر لها ولكن لولا ما لولا؟؟؟

هم التجارب الناطقة:

من يتابع مسيرة العمر للشيخ العاملي رحمه الله سوف يتخيل شخصية رحالة كثير الترحال بين التجارب فهو الشاب الممثل للمرجعية في الكويت وهو الداخل في التنظيم وهو المنبري وهو لسان الفقيه في الإذاعة وقلمه في ترجمة رسالته هداية العباد، و هو المناظر والمحاور وهو المدير العام للمشاريع العلمية والثقافية التي اثمرت المعجم الفقهي ومعجم احاديث المهدي، وهو المتصدي للعلمانية والشيوعية والمادية، وهو المؤلف وهو المترجم القناص للمادة العلمية التي تلبي حاجة وذوق الشباب، ما حدا به أن يترجم قصة من اكثر القصص تشويقا وتعبيرا عن الصراع بين المعنوية و المادية من خلال شعيرة الحج في كتاب دبج بعنوان"

ملائكة الغيب قادمون".

فعلى أساس من تنقلاته باجنحة الفراشة الناعمة بين هذه الزهور وصفتُه بالرحالة بين الميادين، والذي قد لحق باخر رحلاته فرحمة الله عليه..

فبعد ما يزيد على نصف قرن من العمر وبعد أن اعتلى صهوات الجياد ذات الأصول السياسية والعلمية والفكرية المختلفة ترجل ليقيّيها ولكن تقييمه اثار الكثير من الحفائظ ومما شاع ذلك الوقت تعرضه لاعتداء مؤسف في الشارع المؤدي الى مكتبه الخاص بمشروع المعجم الفقهي في مدرسة السيد الكلبايكاني.

وقد انبأنا تلك الايام بانكبابه على كتابة كتاب لن ينشر الا بعد حين وفاته، وقد ولدت السنين الطويلة بعد هذا الموقف كتابا عنونه بعنوان: تجربتي الى طالب العلم..

فهل يا ترى هو ما كان يفكر فيه، ان كان كذلك فلا شك انه قد عمل على تهذيب فكرته لأننا رأيناه قد تجاوز العديد من المحطات التي كان لوح بها او تلك التي قد كشف عنها وقوبل حينها بردود الفعل القوية!

اريحية وميانة:

وعلى الرغم من جرأتي العلمية معه ومع كل من اتصلت بهم من الاعلام والأساتذة الا انني لا اعرف كيف قد غلبني الصمت حيال بعض المواقف التي اردت أن

اصادمه فيها بكل ود واحترام.. فان كان قد رحل عنا هذه الأيام فانني لا زلت اعتز بالاريحية التي عودنا عليها والميانة التي كانت تنبسط على علاقتنا به، ولعلها تحفزني لاخراج موقفين كورانيين هما من اكثر المواقف اثارة لفكري المستفيد من عطاءته.

- فلم اكن ارتاح لطريقته في اسقاط روايات الظهور على مجريات العصر الراهن ولكني لاحظته قد ابتعد عن ذلك ابتعادا واضحا في العقد الأخير من عمره او ما يزيد.
- وكنت ارغب في أن اراجعه في نظرته التي ابداها حول السيد الشهيد الصدر، ولكن سوفت وماطلت وها هي الفرصة تذهب ولن تعود!

وما كنت اضمر قوله حول هذا الموضوع باختصار:

أن رجلا كتب ""الإسلام يقود الحياة"" وقد ربط فيه الرؤية الكونية بالخلافة والولاية..

وكتب ""فدك في التاريخ"" وضمنه ٤٣ نقطة محاكمة قوية وصريحة[٢] للمتقدمين على علي عليه السلام في الخلافة ولاتباعهم من اعلام تاريخيين ومثقفين عاصرهم في وقته كعباس محمود العقاد وغيره..

---

[٢] وهذه نقاط احصيتها بقراءة دقيقة ومتمعنة للكتاب، ومن يقف عليها يكاد يفهم بعض المتشابهات التي وردت بين سطوره وهي قليلة بطبيعة الحال.

كيف يمكن أن يقال على فكر هكذا رجل انه فكر متمازج مع غير مدرسة اهل البيت عليهم السلام [٣] .

وكتب :

عبد الجليل البن سعد

الاحساء .

٢١ مايو ٢٠٢٤

[٣] اكاد اطمئن الى أنه لم يكن يقصد العبارة بثقلها اللغوي حينما تكلم عنه في مقدمة احد الكتب التي سحبت من السوق في وقتها، بدليل اننا كنا وعلى مدى طويل نلمس منه الاجلال والتعظيم للسيد الصدر وهذا ما ظهر من اخر كتبه (تجربتي الى طالب العلم) أيضا.